

المُهْمَشُ والهَامِشِي في رواية "جمعة القفاري" لمؤنس الرزاز
The marginal and marginalized in the novel "Jumah al-Qafari" by
Mounis al-Razzaz

* د. نورة محمد فرج الخنجي

جامعة قطر

nourafaraj@qu.edu.qa

تاريخ الإرسال: 2026/02/06	تاريخ التقييم: 2026/04/18	تاريخ القبول: 2026/06/10
---------------------------	---------------------------	--------------------------

الملخص:

يعتمد هذا البحث إلى دراسة رواية "جمعة القفاري" للروائي الأردني مؤنس الرزاز، التي تميزت عن رواياته الأخرى بانتقالها من مستوى علاقة المثقف مع السلطة، إلى مستوى علاقته مع الشعب، وهو بذلك نموذج للإنسان العربي النكرة الذي يعاني حالة انفصام خلفتها صدمات السياسة، كما تميزت الرواية بنقدها للوضع الفكري والحياتي الذي تعيشه الشعوب المهمشة بإرادتها. وكأن الرزاز يدين الحالة التي صار إليها المجتمع العربي، حيث غدا مسكوناً بالهامشية والعجز والانفصام والعيش في بطولات متوهمة، والبحث يعتمد إلى استقراء الحمولات الفكرية السابقة، من خلال تحليل فكرة "الهامشي – المُهْمَش"، تحليلًا موضوعيًا – فنياً، وفق تجلياتها وتشكيلها لعناصر القص الأساسية (الشخصية – الحدث – الزمان – المكان).

الكلمات الدالة: مؤنس الرزاز، الرواية، الرواية الأردنية، الهامش، المهمش.

Abstract:

The current research examines "Jum'at al-Qafārī" novel by the Jordanian novelist Mu'nīs al-Razzāz. A novel different from other novels, it moves from the relationship between the educated and authority to the relationship between the educated and the people. This educated becomes an example of the Arab NOBODY;

he suffers disassociation caused by political shocks. The novel is also different in criticizing the intellectual and style of living experienced by marginalized people willingly. As if al-Razzāz condemns in his novel the current state of the Arab community, who has transformed to marginality, disability, and disassociation and lived in fictitious heroism. The research exploits the previous intellectual load by analyzing the theme "marginal- marginalized" in an objective-technical manner according to its appearance and formation of main narration constituents (personality, event, time and place).

Key Words: Mounis al-Razzaz, the novel, the Jordanian novel, the margin, the marginalized

* المؤلف المراسل:

مقدمة:

تهتم هذه الدراسة بتحليل إحدى روايات الكاتب الأردني "مؤنس الرزاز"، وهي رواية "جمعة القفاري" التي تفردت بخصوصيتها البنائية والموضوعية عن باقي أعماله، وإن كان اهتمام النقاد قد اتجه صوب رواياته "أحياء في البحر الميت" و "اعترافات كاتم صوت" و "متاهات الأعراب في ناطحات السراب"، وخصوصاً الرواية الثانية لاقتراحها الحكيم المسكوت عنه في العلاقة مع السلطة، ولأنها تمثل ما يشبه سيرة روائية للكاتب ولوالده، إلا أن "جمعة القفاري" تميزت بانتقالها من مستوى علاقة المثقف مع السلطة إلى مستوى علاقته مع الشعب، كما تميزت بنقدها للوضع الفكري والحياتي الذي تعيشه الشعوب المهمشة بإرادتها. مثلت هذه الرواية خروجاً على موضوعات مؤنس الرزاز في رواياته، ففي حين كان الهم القومي هو الموضوع الذي تبناه في أكثر رواياته، تأتي "جمعة القفاري" روايةً تحتفي بال (النكرة) والمهمّش الذي تنقصه الفاعلية والقدرة على إحداث تغييرات حتى ضمن إطار حياته

الخاصة. يبدو مؤنس الرزاز في نموذجة الذي يطرحه في هذا العمل وكأنه انتقل من نقد السلطة والعناوين الكبرى للحياة القومي، إلى نقد الشعوب ممثلة في شخص جمعة القفاري، وكأن هذا النموذج بعجزه ولامبالاته وانغلاقه هو الذي أنتج هذه السلطات. وفي هذا نقض لما وصف به بعض النقاد هذه الرواية من أنها (استراحة المحارب) قياساً إلى الروايات الأخرى، لبساطة موضوعها وشكلها!.

في هذه الرواية فضح مؤنس الرزاز الإنسان العربي النكرة الذي يعاني حالة انفصام خلفتها صدمات السياسة. يقول هو عن هذا العمل أنه أراد من خلاله تسليط الضوء على " شخصية النكرة الذي يعيش على هامش المجتمع في حالة اغتراب شديد... إنه الصعلوك الذي لا يدري إن كان خرج على المجتمع بإرادته، أم أن المجتمع قد خلعه خلعاً".¹

تحكي الرواية قصة "جمعة القفاري"، وهو شاب من (عمّان الغربية)، ورث أرضاً عن والده بلغت قيمتها في سنوات الطفرة ما يقارب المليون دينار، ضيع معظمها دون فائدة. جمعة هذا لا يعرف شيئاً حقيقياً عن الأردن ولا عن عمّان الشرقية، عاطل عن العمل يعاني الضجر. يفشل في كل مرة يحاول أن يجد فيها زوجة، يؤمن بالقيم والأخلاق، يشرب الخمر ثم يسعى إلى طرق المتصوفة.. يعيش في كنف أخته المتزوجة التي لا تكف عن العمل لرعاية أولادها في غيبة زوجها الذي انفصل عنها واستقر في الخليج. يلتقي جمعة مع ابن عمه فاضل القفاري أو "كثير الغلبة" الذي يؤمن بالانتهازية، ويمثل نقيضه فقد ارتفع رصيده من الصفر إلى المليون. وتتعرف إلى "وداد" المرأة التي تقرأ لجمعة في الصحيفة وتبحث عن صداقته. ويتقاطع جمعة في علاقته مع "وداد" مع بطلي روايته "نعمان العموني" و"نانسي". فنعمان يزعم لنانسي التي لقيها في واشنطن أنه ابن الصحراء وشيخ عشيرة، ويسرد لها مبالغات حول شخصيته في بلاده حتى إذا فاجأته في عمان وجدته غير قادر على عمل شيء، حتى أنه لا يعرف بلده.

تنتهي الرواية برحيل عائشة وأولادها إلى حيث يقيم زوجها في الخليج، وبناتقال فاضل وزهرة إلى بيتهما الجديد بجوار منزل عائشة، بينما تحمل سيارة الشرطة جمعة القفاري خارج الحي بطلب من السكان، لما أحدثه في لعبه مع الأطفال في الشارع من ضيق وإزعاج. في هذا البحث، سنقوم بتحليل "الهامشي - المهمش" وفق عناصر القص الأساسية (الشخصية - الحدث - الزمان - المكان) تحليلاً موضوعياً - فنياً.

2. الهامشي والمهمش:

إن الفرق ما بين الهامشي والمهمش هو فرق في القصديّة، وتحديدًا قصديّة الآخر الخارج عن ذات الهامشي - المهمش، فالهامشي بالنسبة للمجتمع هو ما يقع خارج دائرة اهتمامه، أو في الدرجات الدنيا من الاهتمام، ويقع ذلك بشكل تلقائي ومتشابه على الأغلب بين المجتمعات، مثل أصحاب المهن البسيطة، أما المهمش فهو ما يعتمد المجتمع تهميشه قصداً، وذلك بمثابة إعلان رفض للقيمة المعطاة سابقاً لهذه الكينونات، نظراً لانتهاؤ أهميتها أو فاعليتها في المجتمع، وفي هذه الرواية نقرأ تحولاً لمكانة المثقف، من كونه مركز في وعي أي مجتمع، إلى أن يصبح على الهامش، لأسباب متعددة، منها عدم قدرته على التواصل الفعّال مع المجتمع، بسبب البعد الذهني وانشغال الأفراد باليومي المتعلق مباشرة بلقمة العيش بالدرجة الأولى، وانفصال المثقف عن الهم الذي يشغل هؤلاء الناس.

3. العنوان:

تحمل الرواية اسم الشخصية الرئيسية فيها "جمعة القفاري"، والتحليل لعنوان الرواية هو بمثابة مدخل لتحليل هذه الشخصية، فـ"جمعة" الاسم الذي يدل على زمان هو يوم من أيام الأسبوع، إلا أن ما يميز هذا اليوم هو أنه يوم عطلة، يوم خال من المسؤوليات والواجبات، لا عمل فيه، وبالتالي لا إنتاج، وهذا هو ما يصبغ حياة جمعة القفاري نفسها، فهو عاطل عن العمل، ذهنه يملؤه الخواء والفضاء، وأما الجزء الثاني من اسمه، "القفاري"، والذي قد يبدو للوهلة الأولى يحمل إيحاءً بالبطولة العربية الغابرة، إلا أن ثمة دلالات أخرى تنمى مع النصف الأول من اسمه، فالقفار تحمل دلالتين:

- دلالة الخواء: فهي خاوية من الحياة، أرض بور لا نتاج فيها، كحياته تماماً.
- دلالة الاتساع: فالقفار تمتد على مساحات شاسعة من العالم العربي، وكأن الرواية توّمت إلى امتداد هذا النموذج عبر مساحات شاسعة من هذا العالم العربي أيضاً!

كما أن تسمية الرواية باسمه، وتمحورها حول هذه الشخصية ذاتها، يحيل إلى تمحوره حول ذاته المنفصلة عن العالم.

من جهة أخرى، ثمة عنوان فرعي للرواية هو "يوميات نكرة"، نلاحظ أن الروائي قد اختار نحويًا إضافة النكرة وليس إضافة المعرفة، حيث أضاف كلمة "يوميات" إلى "نكرة" وليس "النكرة"، وهذا يحمل الكلمة تنكيراً على المستوى السطحي والآخر العميق، فالنكرة في حالة جمعة القفاري ليس هو المجهول من الناس وحسب، وإنما يمثل المثقف المجهول الذي

لا يعني أحدا ولا يمثل قيمة بالنسبة لهم، فهو بذلك ارتداد من قيمة المركزية ومحوريته بالنسبة للمجتمع إلى مساحة الهامشية.

داخل النص، سيتحول الأمر إلى خطاب واضح لجمعة وإعلان صريح أنه "نكرة": "قلت لنفسني:

(ينبغي يا جمعة أن تخرج من عمان، أن تشم الهواء، في منطقة أو مدينة لا يعرفك أحد فيها"، وهذه مسألة سهلة بالنسبة لنكرة مثلي. وسرعان ما طاوحت خاطري هذا، وقلت. (حاضر).².

بالمقابل، سيعمد جمعة إلى اختراع شخصية "نعمان العموني"، وهي شخصية مناظرة له، سيحاول أن يجعلها نسخة خيالية محسنة له، لأنه يرغب بحياة أخرى أفضل من التي يعيشها، حياة بطولات كما يريد، يقول: "ولكن مالي ولجمعة القفاري، لماذا لا أسند خدي بباطن كفي، وأتخيل مغامرات نعمان، المعروف بالنعمان، في عمان وغيرها من البلدان؟!"³ إن اختياره اسم "النعمان" يحيل إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء، كما أن اسم "النعمان" يتضمن عمان في داخله. وأيضا الوقع السجعي فيه تفخيم مقصود لإحداث السخرية.

من خلال هذه الشخصية المخترعة يحاول جمعة القفاري أن يعيد إنتاج حياته بشكل أكثر نجاحا إيجابية وفعالية وتأثيرا في الآخرين، لكنه سيبوء بالفشل حتى في بناء شخصيته المتخيلة.

في أول فصل يعلن جمعة أنه نكرة "جمعة يعترف: أنا نكرة- جمعة يتحدث إلى القراء!"⁴، وسيتكرر اسم جمعة في معظم فصول الرواية، سنجد الاسم إما يأتي في سياق ساخر، أو في سياق تقرير - ساخر. إن حضور هذا الاسم باستمرار هو حضور لتهميشه من خلال السخرية المستمرة منه، وفي أحيان أخرى سيرد اسمه بالاشتراك مع أسماء أخرى، وربما تقدمت على اسمه أيضا.

	العنوان	طبيعة الجملة	حضور الآخر
1	جمعة يشم الهواء	ساخرة	جمعة
2	جمعة يكشف سرا من أسرار	ساخرة	جمعة

3	جمعة يعثر على عمل بعد شهور من البطالة	تقريرية - ساخرة	جمعة
4	الغلباوي يبحث عن جمعة: جمعة.. يبحث عن مغامرة	ساخرة	الغلباوي - جمعة
5	جمعة القفاري في شهر العسل!	تقريرية - ساخرة	جمعة
6	جمعة القفاري زواج آخر	تقريرية	جمعة
7	مشهد من مراهقة جمعة القفاري	تقريرية	جمعة
8	مشهد من حكايات جمعة القفاري	تقريرية	جمعة
9	كيف تعرف جمعة إلى وداد	تقريرية	جمعة - وداد
10	مشهد يصور العلاقة بين جمعة ووداد: غرام وانتقام	ساخرة	جمعة - وداد
11	كيف تصدعت العلاقة بين وداد وجمعة؟	تقريرية	وداد - جمعة
12	المشهد: أخيرا.. وبعد جهد جهيد عثر جمعة على عمل جديد - جمعة مدقق حسابات ويفزع لوداد!	ساخرة	جمعة - وداد
13	المشهد الذي يدرك جمعة فيه أن هذا العالم ليس لنا!	ساخرة	جمعة

14	مشادة بين وداد وجمعة	تقريرية	وداد - جمعة
15	وداد تشكو جمعة لعائشة	تقريرية	وداد - جمعة - عائشة
16	جمعة موظفا	تقريرية	جمعة
17	جمعة و"كثير الغلبة" يتسكعان	ساخرة	جمعة - كثير الغلبة
18	مشهد حول صراع على السلطة بين جمعة وصبي الجزار	ساخرة	جمعة
19	مشهد: جمعة يحلم بروايته	ساخرة	جمعة
20	مشهد حول رحلة نعمان مع نانسي إلى قصر عمرة	تقريرية	نعمان - نانسي
21	جمعة يحلم: نانسي تشكو نعمان لجمعة	ساخرة	نانسي - نعمان - جمعة
22	مشهد من يوميات جمعة	تقريرية	جمعة
23	مشهد: جمعة والغلباوي يتصعلكان	ساخرة	جمعة - الغلباوي
24	جمعة في المستشفى.. كالعادة!	ساخرة	جمعة
25	مشهد: ساعة في حياة جمعة	تقريرية	جمعة
26	مشهد: جمعة متصوفا	تقريرية	جمعة

27	مشهد: لماذا كان جمعة يهجر بيت عائشة ثم يعود إليه؟	تقريرية - ساخرة	جمعة - عائشة
28	جمعة (الصدمة)	ساخرة	جمعة
29	مشهد: جمعة والعماق	ساخرة	جمعة
30	مشهد: الغلباوي يحلل شخصية جمعة	ساخرة	الغلباوي- جمعة
31	مشهد: جمعة في سوق الصاغة	تقريرية	جمعة
32	مشهد: جمعة جليس أطفال	ساخرة	جمعة
33	جمعة القفاري: الطفل الكبير	ساخرة	جمعة
34	الطفل الكبير جمعة.. بعد أن رحلت عائشة	ساخرة	جمعة - عائشة

إن عدد العناوين السابقة هو 34 عنوانا، وهو مجموع العناوين التي ذكر فيها اسم جمعة بمفرده أو بالاشتراك مع شخصية أخرى، من هذه العناوين، نجد 31 عنوانا ساخرا، يسخر فيه المؤلف من جمعة، ضمن أشكال مختلفة، منها سخرية واضحة مباشرة (مثل جمعة جليس أطفال)، ومنها سخرية مبطنة يمكن الوصول إليها من خلال معرفة القارئ بالنص (مثل الغلباوي يحلل شخصية جمعة).

كما أن العناوين تتفاوت في ذكر اسم جمعة الأول فقط، أو ذكر الاسم والأخير، وإذا ما ذكر الاسم الأخير فإنه من باب التفخيم بقصد السخرية منه، أي أن العنوان يحمل لفظيا التفخيم فيما دلاليا يحمل السخرية.

وحيثما يرد اسم جمعة مع شخصية نسائية فإن اسمه يتبادل الأولوية في العنوان مع اسم هذه الشخصية، فمرة يرد اسم جمعة قبل وداد، ومرة يرد اسم وداد قبلها. كما تنتهي الرواية بفصل يعلن الفراق بينه وبين أخته عائشة، التي كان يعتاش من خلالها.

4. الشخصيات:

ستكون الشخصية الرئيسية في هذا العمل هي جمعة القفاري، فيما تقع بقية الشخصيات على الناحية الأخرى منه، ولا تبدو قيمتها في ذاتها، وإنما قيمتها بقدر ما تكشف من مخفيات عالم جمعة القفاري، وعلاقته الإشكالية مع الآخرين.

جمعة القفاري:

نحن لا نعرف شيئاً عن الوصف الفيزيقي لجمعة القفاري، لا نعرف كيف يبدو خارجياً، فقد صب الكاتب اهتمامه على البنية الداخلية للشخصية، وأهمل متقصداً زيادة في التنكير ملامحه الخارجية. مما جعل الشخصية شخصية ذهنية أكثر مما هي من لحم ودم⁵. على الرغم من أن جمعة القفاري يحمل الكثير من الصفات الإيجابية كالنبيل والصدق والرغبة في مساعدة الآخرين، إلا أن سلسلة صفاته السلبية الأخرى تقف حائلاً دون أن يفعل ما هو إيجابي فيه. فيما يلي رصد لأهم صفاته السلبية كما تتجلى في النص:

- العجز: عدم قدرته على الفعل الذي يؤسس به كياناً خاصاً ويمارس من خلاله مفردات الحياة. فهو يتخيل رواية يقوم فيها شخص آخر يفكر بنفس طريقته ولكنه يقوم بالأفعال التي لا يستطيع هو القيام بها "وفي عمّان بدأ جمعة القفاري يفكر بدفع أحد الكتاب إلى كتابة قصة حياته. ولما أخفق في مسعاه هذا. سيطر عليه هاجس كتابة رواية عن بطل يتكمن أن يكونه. بطل خاض المعارك، وضرب في أرجاء الأرض..."⁶ هو غير قادر على أن يكتب ذاته الحقيقة، لذا يعمد إلى بناء ذات أخرى تؤدي هي أحلامه.

ومن جهة أخرى هو لا يقدر حتى على فعل الكتابة لأن الرواية تظل مرسومة في ذهنه دون أن يقدر على كتابتها، لذا تبقى رغباته في صنع فعل خاص به حبيسة ذهنه فقط دون أن تخرج إلى حيز الوجود.

- الانفصام: عن ذاته: فهو ينادي بمثله النبيلة ظاهرياً، لكنه يحلم بتوليفة رواية يجترح فيها بطله الباطني المنشود كل الموبقات: الزنا.. معاقرة الخمر.. إلخ، كل هذه الأشياء

التي حمل جمعة القفاري بممارستها باطناً، لكنه على سذاجة هذه الرغبات يبدو عاجزاً حتى عن تحويلها إلى ممكن في حيز الكتابة!⁷.

وانفصامه عن المجتمع: إن الرغبة في امتلاك الذات النبيلة، هي منطوق عقل جمعة الواعي، الذي يتصدى به للآخرين في الواقع المحيط. على حين أن الرغبة في استعادة الطفولة بمزاياها المريحة هي مطلوب عقله الباطن في نظر الآخرين، وهكذا، فإن براءته وطيبته ومثاليته، ليست بالنسبة للآخرين سوى عجز وهزيمة واتكالية، أساسها جميعاً الرغبة في التمتع بمزايا الطفولة. بينما تبدو له تصرفات الآخرين ومبادراتهم إلى التكيف انتهائية وابتعاداً عن مناقب الذات النبيلة⁸.

إن جمعة في أول الرواية يعلن عن جهله التفاصيل التي تهم معظم الناس وتتصل بحياتهم المباشرة، يقول: "نعم. أنا جمعة القفاري الذي لا يعرف سعر علبة السمينة أو كيلو اللحم. ولا يتقن إصلاح ما ينكسر بدءاً من ساق طاولة، انتهاء بقلب حبيب. والذنب ليس ذنبي بشهادة ابن عمي وصديقي اللدود فاضل القفاري المعروف بـ "كثير الغلبة". إنه ذنب أمي رحمها الله ثم أختي عائشة. فمها اللتان تتسوقان.. أما أنا فلم أُلَم ببقالة في حياتي إلا لشراء علبة سجائر"⁹ إن جمعة في هذا الانفصال يعلن أن حياته موكولة إلى سواء، خصوصاً والدته وأخته بالتوالي، فالقرار كان لهما في تشكيل حياته في الصغرو في الكبر، وهو يعلن تبريراته هذه وهي تجسد علاقته بالآخرين والمجتمع. كما أنه يعلن جهله على أنه مكون طبيعي فيه، على الرغم من أنه يقول بأنه غير متصلح معه.

- الاستلاب: يقول: "نعم. أنا جمعة القفاري، دون كيشوط هذا العصر، كما تقول أختي عائشة التي لا أعرفها"¹⁰ إنه يعيد تمثيل نفسه عبر دون كيشوت في انفصاله عن العالم، وأحلامه البطولية المتوهمة. ونراه في موضع آخر: "أنا لا أشبه أنطوني كوين! ما ذنبي؟". هنا نلاحظ الاستعادة المشوهة للذات: إنه لا يستطيع أن يكون فارساً عربياً، لأنه لا يشبه أنطوني كوين، وليس لأنه لا يشبه عمر المختار، إن أنطوني كوين يغدو النموذج، مع أنه ليس سوى محاك للأصل: عمر المختار. يترسخ هذا الاغتراب أخيراً، بتحالف الاستلاب مع انفصام الفرد العربي وباطنيته.¹¹

- الثثرة الداخلية: هو يحدث ذاته حول الآخرين وحول نفسه أكثر مما يحدث الآخرين "باختصار يوم الجمعة ينبذني الجميع. المحال والشوارع والناس. تنساني المدينة. إنه يوم عطلة. فتستقبلني هذه الجزيرة الصغيرة. تؤنس أشجارها وحدتي، ويدور حوار ممتع بيني وبين هذه العناصر، بيني وبين"¹². إنه موقن أن سوء الفهم له واقع لا محالة، فيتجه إلى الكلام

مع نفسه، يواسيها بروايته المفترضة عن نعمان العموني. حتى حيال الأحداث فإنه يعتمد إلى رصد مشاعره الداخلية ويحاورها أكثر من اهتمامه بالحدث نفسه.

- الإشكالية: يبدو جمعة القفاري شخصية إشكالية في تعاطيها مع ذاتها ومع المجتمع، فهو يؤمن ويحلم بغير ما يريد المجتمع، ومن هنا تنشأ هذه العلاقة المشكّلة، فلا هو قادر على تحقيق نفسه، ولا هو قادر على العيش في المجتمع بشكل طبيعي. "فالرغبة في تملك الذات النبيلة هي طموح جمعة القفاري، هذه الرغبة التي تصطدم بحقيقة الواقع القاسي والمعقد والفوضوي، مما يدفعه - إلى حين - للتكيف معه. غير أنه يكتشف أن هذا التكيف ليس سوى مقدمة للتصالح التام مع هذا الواقع، على حساب رغبته التي هي ليست سوى شعار مثالي يتورأى خلفه حينه الحادة إلى استعادة طفولته، حيث كانت الأشياء تبدو سهلة وميسورة، والعالم أكثر قابلية للفهم، وسط أناس يمكنه الاعتماد عليهم في تحقيق رغباته"¹³. هنا تتضح أزمة جمعة القفاري، إذ في الوقت الذي ليس في مقدوره فيه إلا أن ينفي الواقع نظرياً وأخلاقياً، فإن الواقع ينفية عملياً وبلا رحمة. "مما يولد تعارضاً متصاعداً بين رغباته ورغبات الآخرين. لا يلبث أن يصبح تناقضاً مطلقاً، يدفعه إلى التوقف عن الاستمرار في الحياة"¹⁴، ونتيجة لفقد الانسجام بينه وبين عالم الكبار، فإنه يحاول الانتماء إلى عالم الأطفال الصغار، غير أن هذه المحاولة تفشل هي الأخرى في إيجاد الانسجام مع العالم، "فسرعان ما تشكك القوم بعقله، ووجهوا الشكوى ضده لأنه يلعب الكرة في الشارع. وسرعان ما جاءت شرطة تقدم نحوها جمعة ليقدم أي مساعدة. وبدلاً من أن يفعل اقتادوه بالسيارة إلى مكان مجهول، لقد اكتشف أنه هو - شخصياً - مسؤول عن هذا المرض الذي نسب إليه واتهم به"¹⁵، يقول: "إنني مسؤول شخصياً عن هذا المرض، لأنني لا أبذل جهداً كافياً للاندماج مع المجتمع"

معظم الصفات السلبية التي يحملها تندرج تحت الانكفاء على الذات وعدم القدرة على التواصل مع المجتمع.

والملاحظ أن جمعة يدرك تماماً وضعه المتأزم، بل إنه يجاهر (أمام نفسه) بأنه لا يستطيع التأقلم مع معطيات واقعه: "المهم إنني عاجز عن التكيف والتأقلم لأسباب عصبية على الفهم. إنني لا أنسجم مع ذاتي، فكيف أنسجم مع المحيط؟"¹⁶. غير أنه محاولاته الفاشلة للتأقلم تدفعه إلى أن يكف عن محاولاته ويستسلم لفكرة انفصامه.

الآخرون:

أبرزهم "فاضل القفاري"، والذي يمثل الشخصية المناقضة لجمعة القفاري، فهو يمثل الانتهازية والوصولية، وتحت نية مساعدة جمعة فإنه يحاول إلغاء الذات الحقيقية لجمعة القفاري ليحوّله إلى نسخة أخرى منه، باعتبار أن هذه هي النمطية الناجحة في الواقع العملي.

إن جمعة لا يستطيع الاستغناء عن فاضل القفاري، لأنه بمثابة النقيض الذي يعيد له توازنه في علاقته بالعالم بالمحيط به، لكن فاضل (كثير الغلبة) هو المهيمن على هذه العلاقة وهو القائد فيه: "جمعة القفاري لا يميل إلى أن يشبك ذراعه بذراع أي كان. لكن جمعة كان يغض الطرف عن بعض تصرفات كثير الغلبة ويقبلها على مضض، لمعرفته أنه بحاجة دائمة إليه. العلاقة بين جمعة القفاري وابن عمه فاضل القفاري كانت تمر بحالات مد وجزر، من جانب جمعة. فكثيراً ما نفذ صبره من فضول ابن عمه، وكثيراً ما ضاق صدره بدور الفهلولي الحكيم الذي يلعبه كثير الغلبة. لكن، لا كثير الغلبة كان يسمح لجمعة أن يقطع شعرة معاوية، ولا استطاع جمعة أن يستغني عن هذه العلاقة التي أدمنها"¹⁷، إن هذه العلاقة لا يستطيع جمعة أن يتحكم بها، فكثير الغلبة هو الذي (لم يكن يسمح) بقطعها، ومن ثمة جمعة لا يستطيع الاستغناء عنها لأنها صارت مثل الإدمان، لا غنى عنها ولكنها مَرضية. أيضاً كثير الغلبة لا يتورع عن تشكيل حياة جمعة بما في ذلك ذاكرته، وفي أخص مناطق خصوصيته وهي تجاربه الأولى في الحب: "حين مر كلاهما بأمانة العاصمة بدأ جمعة يلهث ويبحث عن الهواء. قال كثير الغلبة:

- هل تذكر؟ طول عمرك تحلم. هل تذكر أول فتاة أحببتها؟ أنا سانعش ذاكرتك. سعاد حسني. نعم. أحببت ممثلة لم ترها إلا على شاشة سينما زهران. أليس كذلك؟

قطب جمعة والتقط أنفاسه وقال بصوت واهن:

- لا. أنا كارنينا كانت حيي الأول. ثم نادية لطفي.

قال كثير الغلبة وهو يرفض أن يعترف بهزيمة ذاكرته:

- بل أحببت سعاد حسني. ثم أنا كارنينا. ثم نادية لطفي"¹⁸.

إن كثير الغلبة متحكم بجمعة إلى حد التحكم بترتيب ذاكرته أيضاً.

من هنا نأتي إلى العنصر النسائي المحيط بجمعة، وهو يعاني إشكالات كبرى في التعامل معه، ف"وداد" تعجب بالشخصية المفترضة لجمعة القفاري (شخصية الكاتب) وليس بالشخصية الحقيقية، وهي لا تعدو كونها تبحث عن الإثارة التي تولدها علاقتها بكاتب، لكنها

لاحقا تسأم من هذه العلاقة لأن جمعة ليس على صورة المثقف الذي تتمناه، لذا تقارن لا بينه وبين مثقف آخر، بل بينه وبين شخصيته الروائية التي اخترعها: "اهتز فنجان القهوة في يد وداد، ثم ارتعشت يدها وذراعها المتكئة على المنضدة، فارتجفت المنضدة وما عليها. هتفت باستنكار:

- نعمان العموني حاول.. على الأقل. خاض التجربة. أنت تكتفي بالفرج والمشاهدة والمراقبة والتأمل.
وقالت وداد بانفعال:

- النعمان ليس مدعيا.. على الأقل.
ولم تكن وداد مغرمة بالدفاع عن النعمان، لكنها تستهدف النيل من جمعة ورميه بأنه مزور. مطت شفيتها بامتعاض، وقالت وهي تتكلف ضحكة رنت مرارتها في الفضاء فوق القهوة المرة:

- جمعة، أنت المدعي. أنت تعيش الوهم لا الحياة. تسمع عن الحياة وتقرأ أحيانا، ولكنك لا تعيشها ولا تبصرها. أما النعمان فقد حاول على الأقل.
...

رفعت وداد يدها إلى شعرها، فخطر لجمعة أنها ستشده غيظا، لكنها رفعت خصلات شعرها عن جبينها ونفخت كالمستسلمة وقالت:

- يبد أن كليكما مزور. أنت تخلط بين شخصك الكريم وبطل روايتك التي لم تكتبها بعد.
...

لحق بها الهواء تاركا جمعة يختنق، وجمعة يراقبها تهرب والهواء يتبعها ويعبث بشعرها وقال في نفسه وهو يلعنهما في سره:

- إنهما يقيمان حلفا موحدا ضدي وضد نعمان. كأن تواطؤ الحياة ليس كافيا. غادر المقهى، فصفعه مطر تساقط بغتة. واختفت وداد وهي تقول لنفسها: "بوسع النعمان أن يقوم بمغامرات بالنيابة عنك، لكنه لا يستطيع أن يعيش بالنيابة عنك.. أيها الأحمق"¹⁹.

علاقة جمعة المتهومة مع وداد التي تبحث فيه عن شخصية مثقفة استثنائية لا تختلف عن علاقة شخصيته الروائية المتخيلة بنانسي، المتيمة بـ "نعمان العموني" الذي أوهمها بصورة الفارس العربي فيه، لتكتشف - مثل وداد - كذب هذه الشخصية. إنه لأجلهما يعيد

صياغة ذاته لتتلاءم مع رؤيتهما له، لكنه يفشل أيضاً في تحقيق ذلك. ويلخص هذا المشهد الذي ينكشف فيه النعمان تماماً أمام نانسي، ينكشف بكذبه وجهله وعجزه: "انتصبت نانسي واقفة وراحت تنفض يديها ثم سألته بصوت يغالب الانفجار:

- أنت لا تعلم أين يقع قصر عمرة.. أليس كذلك؟ .. اعترف!

فسقط رأس النعمان من بين منكبيه واستقر على صدره وهمس بصوت لا يكاد يسمع:

- صح!

فانفجرت نانسي تنتحب وتنتفض وهي تقول:

- ولا تعرف كيف تستبدل عجلة السيارة. ماذا تتقن إذا؟ ألا تجيد غير الكذب؟

كل تلك الأحاديث في واشنطن.. لم تكن سوى سلسلة من الأكاذيب؟

وراحت تملأ الفضاء بصراخ حيواني. ونعمان يتلفت خوفاً من الفضيحة. لكن الصحراء كان مقفرة فحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

انقلب نعمان إلى جثة ساكنة بعد حراك متصل، صامته بعد نطق لا يكف. ثم هام في الصحراء صامتا مطرقا يتيامن مع الريح الساخنة مرة ويتياسر مرة أخرى.. إلى أن سمع بوق السيارة. التفت نصف التفاتة، فإذا نانسي تقود السيارة باتجاهه وتشير له أن يدخل.

ركب إلى جانبها معقود اللسان. يتصبب عرقه فلا يجففه. انفجرت نانسي بالضحك، والبكاء كأنما أصيبت بنوبة هستيرية بسبب من الإرهاق. صرخت وهي تضمه إلى صدرها:

- كان ينبغي أن أتركك هنا.. في العراء. وأعود وحيدة بالسيارة إلى عمان.

التقط النعمان أنفاسه، واجتاحه شعور بخجل مراهق. فتضرجت وجنتاه²⁰.

إن وداد وبعدها نانسي، هما المتحكمتان بالعلاقة، وهما اللتان تعلنان نهايتهما، وهما اللتان تفضحان جمعة - النعمان.

إن معرفة الذات تتساوى بمعرفة المكان (= الهوية)، لذا فإن حالة جمعة هي حالة مضاعفة: جهل على جهل، فالنعمان هنا هو جمعة، لكن أمجاد النعمان تتحول إلى حوادث مخزية لأنها حوادث جمعة، وتزاح من كونها بطولات إلى خزي، يبقى خزي جمعة هو المسيطر على النعمان لدرجة أن الريح تحركه في مواجهة الآخر/ الأنثى/ الغربية، بل إنما تمتد لتعرض بفكره الشرقية، لأن الأمريكية هي تعرف الطريق في بلاده، بينما يجهله هو، وهي التي تولت زمام الأمور وقادت السيارة وهي من قررت هل تحمله معها أم تتركه هائما في الصحراء.

أما أخته "عائشة" فهي تمثل الشخصية النسائية التي يعجب بها ويحتاجها ويخشها، كل ذلك في آن واحد، لأنه لا يستطيع محاولة لعب دوره الذكوري معها، فهي

مستقلة بذاتها وتقوم بأبنائها، وهو من يعتمد عليها بدلاً من أن تعتمد هي عليه، ومع ذلك يحاول إثبات ذاته المتخاذلة تجاه أخته في آخر معقل: الشرف. الذي تملئه الأخت، وتبدو المفارقة حينما تشرف على الموت، ويهب فاضل القفاري إليها فيما يقف جمعة عاجزاً، وبدلاً من أن يفكر بإنقاذها يهجم باحتمالية الوضع الذي رآها فيه فاضل، أهو لائق أم لا! لكنه مع ذلك لا يقطع الشك باليقين، ويظل يهجم. في هذه العلاقة الملتبسة يفضح الرزاز الذهنية العربية التي تشغلها قضايا الشرف، حيث لا يهم أن تموت الفتاة شريطة أن يسلم الشرف، الذي لا يعلم أحد حقيقة إن كان قد سلم أم لا!، لكنه يخشى من أن يواجهها بالسؤال مباشرة.

من جهة أخرى، فإن وجوده في بيتها وجود هامشي تماماً، بالنسبة لها وبالنسبة لأبنائها، ووجود ليس وجود الضيف المحترم من قبل الآخرين، بل وجود الضيف الثقيل الذي لا نفع منه، من ذلك هذا الموقف الذي جرى بينه وبين ابنة عائشة: "التفتت نحوي بوجهها الذي يتخذ هيئة قائد تاريخي على وشك أن يطلق إشارة الهجوم الحاسم. قلت بصوت واهن:

- عائشة تريد (بامبرز).. أين (البامبرز)؟

رمقتي ابنة أختي الكبرى بنظرة ثاقبة، لم تكن باردة ولا غاضبة. فقط فاترة.

غمغمت وهي تشيح معرضة:

- أنت كالغريب في هذا البيت. كالضيف. كالشبح. ألا تعرف أين (البامبرز)؟ نترت رأسي سلباً.

قالت وهي تسكب الشاي:

- رحم الله جدي.. كان يعرف كل شيء. الجغرافيا.. القانون.. الموسيقى.. وأنت لا

تعرف أين (البامبرز)!

(ابنة أختي الكبرى هذه تكاد تكون من جيلي)²¹.

إن وجوده ليس وجود الرجل أو صاحب القيادة في منزل أخته، وهو يعترف بأنه لا يعرف شيئاً في المنزل، هو لا يستطيع العيش في مكان آخر، لكنه لا يستطيع أن يعيش في البيت أيضاً ويكون واحداً من أفراد، بل هو منعزل ومعزول عنهم: "كان جمعة يصاب بالذعر والارتباك حين يقرع جابي الكهرباء أو المواسرجي أو النجار باب بيت عائشة، ما أن تقع عينا جمعة عليهم حتى يهتف كاليائس المستجير:

- عائشة!

يمتقع لونه، ويداري اضطرابه ويبرر لهم الموقف على استحياء:

- أنا مجرد ضيف هنا!

وعائشة تتقدم بحزم نحو الباب، تنحى جمعة جانباً كأنه شبح وتقول للمواسرجي:

- لماذا تأخرت يا أبو علي؟ طلبتك منذ أمس. يعني يرضيك أن يظل صنبور الحمام يهرب ماء؟ تعال انظر إلى ما فعلته المياه بالموكيت. سوف اجعلك تدفع ثمن الموكيت من جيبك.

وترن ضحكة أبو علي، ويعلن عن أسفه، ثم يدخل إلى الدار فيدفع جمعة بمنكبه كي يخلي له الممر، ويشق طريقه إلى الحمام.. وعائشة تتبعه بخطى واثقة. ويهرب جمعة إلى مكتبة شومان كي يتجنب ضجة إصلاح الصنبور التي من شأنها أن تعكر أفكاره الخلاقة حول علاقة دوستوفسكي بنيتشه.

والتطور الذي ينبغي أن يضاف على أفكار هذين العملاقين لتركيب نظرية تخلص البشرية من ألمها، والطريقة التي سينقل فيها هذه الفلسفة الجديدة على لسان بطله (نعمان العموني) في روايته التي لم تكتب بعد!

قال جمعة: كنت اشعر بضآلتي أمام عائشة، وبأنها هي رجل البيت، وانني اعتمد عليها كلياً في كل تفاصيل حياتي، بدلاً من أن تعتمد هي علي. أي رجل ذي إحساس مرهف بالكرامة لا يطيق هذا الموقف. وهكذا كنت أرحل إلى شقة قريبة. غير أنني سرعان ما أعود إلى بيتها. فانا لا أطيق الوحدة والوحشة مع أنني وحيد دائماً. ثم إنني لا أجيد إعداد الطعام وتنظيف الشقة والعناية بنفسني.. ثم.. (سوف اصمت لا داعي للمزيد من الفضائح!)²².

إن ما يدقعه إلى العودة مراراً إلى منزل أخته هو الحاجة بتفاصيلها الصغيرة، والحاجة إلى الانتماء، وعدم قدرته على العيش ككيان منفرد لكنه لا يستطيع أن يكون جزءاً فعالاً في المكان، بل هو دوماً ملتصق بالآخرين كعلقة لا يشعرون بها، ووجوده دوماً وجود هامشي.

5. الحدث:

ليس في النص ما يسمى بالحدث الفصيل الذي ترتفع به وتيرة الأحداث، بل تظهر الأحداث مسطحة مشابهة لشخصية جمعة القفاري. ولا أهمية للأحداث في ذاتها، بل في قدرتها على رصد ملابسات العلاقة الملتبسة بين جمعة المجتمع، من خلال مشاهد منفصلة لا رابط بينها سوى شخصية جمعها نفسها.

فعلى امتداد الرواية ومشاهدها نجد مثلاً الأحداث التالية:

- جمعة القفاري يجلس في الحديقة ليثرثر مع رجل لا يعرفه حواراً يبدو مقطوعاً.

- يتفرج جمعة مع صاحب محل فيديو على شريط زواج فيقرر الزواج من العروس التي طلقها بعد أيام زوجها.
- مشاجرة هزلية بين جمعة ووداد .
- جمعة وفاضل القفاري يتسكعان في الشارع ويثرثران.
- تترك أخته عائشة طفلتها في رعايتها ولكن الطفلة ذات السنوات الثلاث تستثيره فينتهي إلى تخريب البيت.

على هذا النحو تظهر الأحداث أحداثاً أقرب إلى التفاصيل اليومية البسيطة دون حدث خاص، إنما الأحداث مجبّرة لفضح العلامات الإشكالية في شخصية جمعة القفاري. في إحدى المشاهد سيحدث أن تؤول السلطة لمدة يوم واحد إلى جمعة في دكان الجزائر، لكنه بسبب جهله من جهة، وعدم قدرته على القيادة يفقد السيطرة تماماً، ويلجأ إلى قتل الجزائر من خلال قوله للزبائن أنه قد مات، لكنه محاولة الهروب هذه تبوء بالفشل: "في محاولة يائسة لفرض هيئته هتف جمعة في الناس أنه لن يبيع اللحم اليوم، حدادا على روح أحمد الجزائر... التفت جمعة إلى الصبي الذي كان منكمشا على نفسه الكسيرة. فرآه يضحك في عبه ساخرا. خلع جمعة المريلة، ووضع الساطور جانبا، وقال لنفسه أن هذا الولد اللعين كشف طبيته. سقط القناع، وها هوذا الولد الأبله يراه عاريا على حقيقته لا يفرق بين الخروف والماعز.

سقطت ذقن جمعة على صدره. غادر الملحمة بخطى جمائرية. وقال للصبي:

- أغلق الملحمة إلى أن يعود أحمد الجزائر.
- اجتاز الشارع مثل جنرال انقلب عليه الناس ما أن جلس على مقعد الرئاسة، قال وهو يمضي إلى بيت عائشة:

- ... ها أنا أك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال.

ثم فكر برودة فعل أحمد الجزائر وتذكر ضحكة الصبي الصفراء المستهينة، فتمنى لو تنشق الأرض وتزدردده.²³

إن هذه العلاقة الإشكالية التي تتمثل في عدم قدرته على التفاعل على نحو سليم مع الناس، تنتهي به إلى ما يشبه الجنون، حيث يؤول به الحال إلى أن يصبح كالأطفال في عقله، يطارده الناس بوصفه مخربا.

"في تلك الأثناء قدم بعض سكان الحارة عريضة إلى محافظ العاصمة تطالب بطرد جمعة القفاري من الحي، بتهمة أنه يعلم الأولاد على الصعلكة والزعرنة، ويعرقل سير السيارات، ويعيق مسار المارة. بالإضافة إلى أن هذا الرجل يتصرف تصرفات عصبية على الفهم... كأنه طفل كبير مشاغب.

كان جمعة يسجل هدفا، وأعضاء فريقه من الأولاد يركضون نحوه فيعانقونه ويهنئونه ويصفقون له... حين بزغت سيارة الشرطة من مدخل الحارة، وراحت ترسل تلك الأصوات التي تشبه الزعيق. فظن جمعة أن حريقا قد شب في الحارة، أو أن أحد الجيران قد أصيب بنوبة قلبية، كان يطلق ضحكة مجلجلة حين سجل الهدف. فما أن سمع تلك الأصوات التي تصدرها سيارة النجدة، حتى ترك الكرة وتخلص من الأولاد الذين كانوا يتحلقون حوله، وهرع نحو سيارة النجدة. توقفت سيارة الشرطة، فانشئ جمعة وسأل الضابط من وراء زجاج نافذتها:

- هل أستطيع المساعدة؟

وكان الأولاد يتفرجون، والشمس تهم بالغروب، وبدأت العتمة الغامضة تلقي ظلالها الشاحبة على الحارة. وبدأ بقية ما تبقى من آثار النهار يزوي ويخمد أو ينسحب دون ضجة... وحين اختفى النهار تماما، انطلقت سيارة الشرطة واختفت جمعة من الحارة. كان جمعة في السيارة، وكانت العتمة في الحارة. وعنّ لجمعة وهو يحدق من خلال النافذة، أن الستارة قد أسدلت أخيرا، وأنه ذاهب لمقابلة المخرج، وكان يتساءل بقلق إن كان المخرج سيقول له:

- يعطيك العافية. أبدعت. إنتهت أخيرا أدوارك المؤلمة.

أم أنه سيقول:

- أحسنت.. والآن سنبدأ فصلا جديدا.

وكان قلبه يخفق بعنف، ورأسه يضح بالقلق والأمل وهو يبتسم ابتسامته العريضة!²⁴.

إن المشهد النهائي الذي تأخذه فيه الشرطة لتبعد عن تخريب الحارة على نحو طفولي، هو مشهد سحبه عن الظهور في عالم البالغين الذي لا ينتهي إليه، كما أنه نهاية لمشاهد حياته التي تشبه فيلما سينمائيا بالنسبة له، هو البطل فيها، بينما للآخرين هو هامش لا أهمية له يستحق إزاحته.

6. الزمان والمكان:

رغم أن المكان الذي تتحرك فيه الشخصية هو عمان الغربية تحديداً، إلا أن مدناً أخرى تحضر، لا لشيء إلا لتشي بضييق أفق جمعة القفاري. يحلل إبراهيم السعافين المكان في الرواية: "والذي يلفت النظر في هذه الرواية وضوح "المكان" وتفصيلاته وضوحاً دقيقاً، فثمة مقابلة بين عمان الغربية وعمان الشرقية، وثمة أسماء لمدن وقرى أردنية من مثل السلط والرمثا والكرك وأدر والعالوك، وثم ذكر لعشائر من مثل بني صخرو وبني حميدة وبني حسن، وفي إطار المكان عدداً من شخصيات مشهورة في ميادين مختلفة. ولعل ذكره لبعض الأماكن كان أقرب إلى التباهي بمعرفة هذه الأماكن وتكراراً لفكرة ثنائية العميق/ السطحي، الوطن/ وهم الوطن، الشعب/ الطبقة المستغلة، حتى باتت لتكرارها أقرب إلى الشعارات أو الدعاية والخطب والوعظ والإرشاد، إذ نراه في مفتتح الرواية يحدد انتماءه الفكري الطبقي من خلال انتمائه للمكان"²⁵

إن المكان هو أول ما يظهر في الرواية، حين يعرف جمعة القفاري بنفسه، إنه جزءه اللطيق وما يحدد هويته: "نعم. أنا جمعة القفاري (ما غيره) الذي عاش طوال حياته في عمان الغربية. لم يغادرها إلا في سفرات سياحية إلى أوروبا، أو للعلاج في أمريكا. نعم، أنا نكرة. نعم... نعم، بوسع الإنسان في الأردن أن يولد في عمان الغربية ويموت فيها، دون أن يكتشف مجاهل (جبل التنظيف) الذي تحتاج شوارعه إلى حملة تنظيف. ولا (جبل الزهة) الذي لا يصلح للزهة. بوسعك أن تعيش من المهد إلى المهد إلى اللحد في عمان الغربية، دون أن تضطر إلى زيارة الشوبك، أو معرفة المفرق، أو المرور بالطفيلة. (أحياناً أذهب إلى فندق العقبة بالطائرة وأقضي في الفندق وعلى رمال الشاطئ وفي البحر أياماً، دون أن أخرج إلى الشارع. فأنا أعرف فنادق العقبة.. لا العقبة نفسها."²⁶

يقول جمعة في النص السابق أنه لا يعرف الأماكن الأخرى، لكنه يعرف لأنه يقول "جبل الزهة الذي لا يصلح للزهة"، فلو لم يكن يعرفه لما كان بمقدوره تقرير أنه لا يصلح للزهة. لكن جمعة في تحديداته هذه يبدو واعياً بعلته، فعلاقته بالمكان هي علاقة الهامشي، لأنه نخبوي، وهامشي بالنسبة للمراكز الأخرى التي يمثلها البسطاء. وثمة علاقة تبادلية بين الهوامش، الأماكن الأخرى هوامش بالنسبة له، هو يهملها لا يعرفها، وهي تهمله حين لا تعرفه وتجعله غريباً عنها.

إن علاقته بالمكان مهمة لأنها تحدد هويته وانتمائه، كما كان لحضور المكان أبعاداً واقعية، كما أنه أكسب النص خصوصية محلية بارزة.²⁷

أما الزمن، فهو الزمن الممتد عبر ستينات هذا القرن، "إثر انفجار مبنى رئاسة الوزراء في عمّان ومقتل رئيس الوزراء بداخلها، وقد شهدت تلك الفترة من تاريخ الأردن اضطرابات سياسية، وصراعات متعددة تدخلت فيها الدول الأخرى عبر تنظيمات تابعة لها موجودة على الساحة الأردنية"²⁸.

وقد اقتصر على فترة ما بعد الطفرة، إذ نرى جمعة القفاري الذي يحسن إنفاق المال دون جمعه قد باع معظم الأرض التي ورثها عن والده وضيع ثمنها في غير طائل، بيد أن بناء الرواية ساعد على تداخل الأزمان، فلم نعد أمام زمن تقليدي يحدد فترة بعينها، وإن كانت الرواية قد ركزت على شخصية "جمعة" في فترة زمنية بعينها.²⁹

7. الشكل:

في أحد حواراته يعبر مؤنس الرزاز عن رؤيته للشكل الفني ومضمون الرواية، يقول: "إنني من الذين يؤمنون أن الشكل هو المضمون وأن المضمون هو الشكل، ولا أرى كيف يمكن أن نعبّر عن المرحلة المهارة المتشظية المبعثرة بشكل متماسك، وبمعمار متماسك ... أنا أعتقد أن المضمون هو الشكل والشكل هو المضمون، فالمضمون يتخذ الشكل الذي يناسبه، لأننا لا نستطيع أن نفصل بين الشكل والمضمون"³⁰.

وتبدور رواية "جمعة القفاري" امتداداً لهذه الرؤية، فقد اتخذت شكل اليوميات التي تدور حول الشخصية الرئيسية، التي تتفوق هي حول ذاتها. مع ملاحظة أن هذه اليوميات ليس مذكرات مكتوبة، بل هي يوميات قد يرويها هو - في الغالب - أو يرويها راو، أو يروي فاضل القفاري شيئاً عن جمعة، فهي تعتمد على حكاية ما يجري في أيام جمعة القفاري وليس هي يوميات يكتبها هو.

كما أن هذه اليوميات تعاني الفوضى والتداعي البطيء، وليس ثمة خيط حقيقي يربطها غير جمعة نفسه، وهي بذلك تعبر عن ذهنيته المضطربة غير المنظمة والتي تفتقر إلى رؤية واضحة للأمور وشئون الحياة.

هذا على مستوى الشكل العام لبنية النص، أما على مستوى اللغة فقد اعتمد فيها المؤلف اللغة الساخرة المحملة بدلالات سوداوية، مما حمل فيصل دراج على إدراج النص ضمن ما يسمى أدب الضحك الأسود. يقول شارحاً فلسفة السخرية في النص: "تتكشف الأهمية الأولى في السياق الكتابي لمؤنس الرزاز، مفوضاً عن الأدب الأسود المغلق، الذي ينتهي منه القارئ ويصمت، يأتي الأدب الساخر، أو الهجائي، أو أدب الضحك الأسود ليدفع القارئ

إلى قراءة مزدوجة، قراءة ثانوية هي قراءة النص المكتوب، وقراءة جوهرية تعقب القراءة الأولى، إذ يبتعد النص ويظهر الواقع الذي كتب عنه النص. الضحك الأسود كسؤال قبل أن يكون إجابة، سؤال محرض ومتهم ومدين، أي أن الشكل الهجائي، من حيث هو شكل، رفض لواقع واستنكاره، فالزمن الجليل ينكر الشكل الساخرو يستنكره، أما زمن الانحطاط فينكر الشكل الجليل ويستنكره، ويكون الهجاء هو الشكل الأدبي الموافق له. في هذه النقطة نلمس الأهمية الثانية لمعنى الأدب الساخر، أنه انعكاس لواقع متدهور لا تليق به إلا السخرية... "وجمعة القفاري" يتابع خيالاته المتواترة في هزله المتواتر، ويمكن له أن يواصل سعيه ما استطاع، من دون أن يفارق المحاولة أو يلتقط النجاح. ولذلك فإن النص الساخري يأتي مفتوحاً وبلا نهاية، ومعلناً أبداً، أن معنى الواقع لا يقوم في الموضوع أو المضمون أو الأثر والواقعة بل في الشكل الذي يقول الموضوع والواقعة. إن الضحك هنا احتجاج على المراتب والقواعد الصارمة والمرتبطة الباذخة والمقدسات الشكلية، بل إنه شكل من التحرر، لأن الضاحك ينطلق على سجيته، يحرر الفم والوجه واليد والروح"³¹.

8. النتائج / خاتمة:

امتازت رواية "جمعة القفاري" بتلاقي الشكل الفني الذي جاء معبراً بدقة عن مضمون النص، فقد استطاعت الشخصية الهامشية أن تفضح خيالاتها، وطبيعة العالم الذي حاولت صنعه ففشلت فيه، كما تتبعت إشكالياتها مع العالم الخارجي حتى النهاية. وكأن الرزاز يدين الحالة التي صار إليها المجتمع العربي، حيث غدا مسكوناً بالهامشية والعجز والانفصام والعيش في بطولات متوهمة. هذه الحالة التي ينبغي فحصها بدقة لمعرفة أسبابها وإعادة ترميمها ودفعها إلى الحياة من جديد.

المراجع:

الكتب:

- 1- أبولين، زياد: حوارات مع أدباء من الأردن وفلسطين. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1999م.
- 2- خليل، إبراهيم: الرواية في الأردن في ربيع قرن 1968 – 1993. دار الكرم للنشر، عمان، ط1، 1994م.
- 3- الرزاز، مؤنس: جمعة القفاري: يوميات نكرة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1990م.
- 4- رضوان، عبد الله: أدباء أردنيون: دراسات في الأدب العربي الحديث. دار الينابيع، عمان، 1996م.
- 5- السعافين، إبراهيم: الرواية في الأردن. لجنة تاريخ الأردن، عمان، 1995م.

- 6- عبد الخالق، غسان إسماعيل: الزمان المكان النص: اتجاهات في الرواية العربية المعاصرة في الأردن 1980-1990م. دار الينابيع، عمّان، 1993م.
- 7- الفاعوري، عوني صبحي: أثر السياسة في الرواية الأردنية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1999م.

الدوريات:

- 1- البرماوي، فاطمة عزت: "مؤنس الرزاز". مجلة الرافد، ع57، 2002م، ص41-46.
- 2- دراج، فيصل: "الاغتراب بين رواية هلسا ورواية مؤنس الرزاز". مجلة أفكار، ع113، 1993م، ص5-12.

الهوامش

- ¹: مؤنس الرزاز: ضمن شهادة شخصية له أوردها غسان عبد الخالق في كتابه: الزمان، المكان، النص، اتجاهات في الرواية العربية المعاصرة في الأردن. 1980-1990م. دار الينابيع، عمّان، 1993م. ص101.
- ² جمعة القفاري، ص 132.
- ³ جمعة القفاري، ص 8.
- ⁴ جمعة القفاري، ص 9.
- ⁵ انظر: عبد الله رضوان: أدباء أردنيون. دار الينابيع، عمّان، 1996م. ص211.
- ⁶ مؤنس الرزاز: جمعة القفاري. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1990م. ص21.
- ⁷ انظر: الزمان، المكان، النص، اتجاهات في الرواية العربية المعاصرة في الأردن. ص37.
- ⁸ الزمان، المكان، النص، اتجاهات في الرواية العربية المعاصرة في الأردن. ص37.
- ⁹ جمعة القفاري، ص 6-7.
- ¹⁰ جمعة القفاري. ص7.
- ¹¹ الزمان، المكان، النص، اتجاهات في الرواية العربية المعاصرة في الأردن. ص40 – 41.
- ¹² جمعة القفاري. ص18.
- ¹³ الزمان، المكان، النص، اتجاهات في الرواية العربية المعاصرة في الأردن. ص36.
- ¹⁴ المصدر نفسه. ص38.
- ¹⁵ إبراهيم خليل: الرواية في الأردن في ربع قرن، دار الكرمل للنشر، عمّان، ط1، 1994م. ص50.
- ¹⁶ جمعة القفاري. ص7.
- ¹⁷ جمعة القفاري، ص 96.
- ¹⁸ جمعة القفاري، ص 98.
- ¹⁹ جمعة القفاري، ص 84-85.
- ²⁰ جمعة القفاري، ص 114.
- ²¹ جمعة القفاري، ص 29.

- ²² جمعة القفاري، ص 153 - 154.
- ²³ جمعة القفاري، ص 103.
- ²⁴ جمعة القفاري، ص 218.
- ²⁵ إبراهيم السعافين: الرواية في الأردن. لجنة تاريخ الأردن، عمان، 1995م. ص 296.
- ²⁶ جمعة القفاري، ص 5.
- ²⁷ انظر: الرواية في الأردن في ربع قرن. ص 43.
- ²⁸ عوني صبحي الفاعوري: أثر السياسة في الرواية الأردنية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1999م. ص 141.
- ²⁹ انظر: الرواية في الأردن. ص 298.
- ³⁰ زياد أبو لبن: حوارات مع أدباء من الأردن وفلسطين. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1999م.
- ³¹ فيصل دراج: "الاغتراب بين رواية هلسا ورواية مؤنس الرزاز". مجلة أفكار، ع 113، 1993م ص 45 - 46.